

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

مكانة البلاغة من النقد القديم والدراسات الأسلوبية المعاصرة (نحو مقاربة جديدة في نقد النقد)

The status of rhetoric in ancient criticism and contemporary stylistic studies (Towards a new approach in criticism of criticism)

د. بوعيشة بوعمارة Bouamara Bouaicha د. بوضبيعات أحمد Bousbiat Ahmed
أستاذ. جامعة الجلفة. كلية الآداب واللغات والفنون. قسم اللغة والأدب العربي
Professor. Faculty of Letters, Languages and Arts. Department of Arabic Language and
Literature.
bouicha.bouamara@univ-djelfa.dz

أستاذ. جامعة الجلفة. كلية الآداب واللغات والفنون. قسم اللغة والأدب العربي
Professor. Faculty of Letters, Languages and Arts. Department of Arabic Language and
Literature.
ahmed.bousbiat@univ-djelfa.dz

المؤلف المرسل (باللغتين): د. بوضبيعات أحمد Bousbiat Ahmed
الإيميل: ahmed.bousbiat@univ-djelfa.dz

تاريخ القبول : 2023-03-09

تاريخ الاستلام: 2023-01-02

الملخص:

تحاول هذه الورقة بحث مكانة البلاغة من النقد القديم والدراسات الأسلوبية المعاصرة، وتحلل العلاقة التفاعلية بين البلاغة العربية والنقد الأسلوبية؛ فقد وجد الناقد العربي المعاصر الذي يتخذ المنهج الأسلوبية مسارا نقديا يتوسل به إلى النص، في التراث البلاغي العربي ميدانا خصبا للاستفادة من آلياته وأدواته في مقارنة النصوص وتذوقها، رجاء كشف جمالياته اللغوية وخصائصها الأسلوبية وعناصرها البلاغية.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، النقد القديم، الدراسات الأسلوبية، نقد النقد.

Abstract: This paper attempts to examine the status of rhetoric in ancient criticism and contemporary stylistic studies, and analyzes the interactive relationship between Arabic rhetoric and stylistic criticism. The contemporary Arab critic, who takes the stylistic approach as a critical path by which he invokes the text, has found in the Arab rhetorical heritage a fertile field to benefit from its mechanisms and tools in approaching and tasting texts, please reveal its linguistic aesthetics, stylistic characteristics and rhetorical elements.

Keywords: Rhetoric, ancient criticism, contemporary stylistic studies, criticism of criticism.

مقدمة:

وتعد الأسلوبية امتدادا للبلاغة ونفيا لها في آن معا، فإذا كانت البلاغة علما معياريا يهدف إلى تعليم مادته، موضوعا البيان، وهي تتميز بالأحكام التقييمية، فإن الأسلوبية تنفي عن نفسها المعيارية وإرسال الأحكام التقييمية، وهي لا تسعى إلى غاية تعليمية. وإذا كانت البلاغة تحكم بمقتضى أنماط مسبقة وقواعد جاهزة، فإن الأسلوبية تلتزم بتشخيص الظاهرة الإبداعية الأدبية ووصفها وتفسيرها، وتهدف البلاغة إلى خلق الإبداع بوصاهاها التقييمية، بينما تسعى الأسلوبية إلى تعميم الظواهر بعد أن تقرر وجودها.

لقد اعتمدت البلاغة فصل (الشكل/التشكيل) عن (المضمون/الرؤيا)، فيما ترفض الأسلوبية مبدأ الفصل بين الدال والمدلول، وتنظر البلاغة إلى الصورة نظرة منطقية، أما الأسلوبية فتتعامل مع الصورة من منظور جمالي وظيفي.

في البلاغة العربية:

لم يعد الناقد الأسلوبية العربي المعاصر- فيما يفترض على الأقل- ذلك القارئ السلي الذي يركن للاستسلام للأنموذج النقدي الأسلوبية الغربي جاهزا، بل أصبح قارنا من نوع متميز، يتفاعل مع الأنا والآخر، ويستفيد من التراث النقدي والبلاغي العربي القديم، ويتفتح على الأنموذج النقدي الغربي المعاصر، بلا إفراط ولا تفريط؛ ثم إن الكثير من المناهج النقدية العربية المعاصرة، ولا سيما النسقية منها، قد اهتمت بالبلاغة العربية، لتكون عوناً لها على فهم النص المعاصر وتذوقه وتأويله.

فهدف قراءة النص ليس معرفة المعنى أو المضمون على نحو مباشر، وإنما فحص النص من خلال طريقته في استخدام اللغة وتشكيلها، وتوظيف صوره ورموزه ورصد أبعادها الأسلوبية والجمالية، وكيفية استقصائه لإمكانات اللغة والتشكيل.

الأسلوبية، والتداولية، والسيمائية، ولسانيات النص، ولسانيات الخطاب، وحتى التفكيكية.

واستطاعت البلاغة القديمة أن تقدم أنموذجاً معيناً للآراء والاقتراحات التي طُرحت فيما بعد، وبخاصة من خلال النظريات الحديثة، بل إنَّ البلاغة القديمة تضمُّ الأفكار الجوهرية التي عُيّنت الدِّراسات النصّية بالتوسُّع فيها، ومن ثمَّ توجد جوانبُ اتِّفاق عدَّة بينها إلى حدِّ يصعبُ معه إغفال الأثر.

ثنائية النقد والبلاغة في النقد العربي القديم:

إنَّ العلاقة بين النقد والبلاغة في الأدب العربي القديم أثارت، ولا زالت، الكثير من التساؤلات والنقاشات، وذلك بسبب هيمنة الجانب البلاغي على النقد القديم، فالنقد كان نقداً بلاغياً، والبلاغة كانت بلاغة نقدية، وهذا في الغالب الأعم، ومعنى ذلك اعتماد النقد على مقولات البلاغة وفنونها، واعتماد البلاغة على الحسِّ النقدي. فالنقد الأدبي كما يقول مصطفى عبد الرحمن إبراهيم هو "أبو البلاغة العربية في حجره نشأت، وفي رحابه درجت، فهي تُنسب إليه وتنبت عنه، ولهذا توثقت الصلة بينهما"⁴.

والدارس ل بدايات النقد والبلاغة وخاصة في قرونه الأربعة الأولى، يتبيّن له مدى امتزاجهما وارتباطهما الوثيق في طور النشأة والتكوين، بل يقف على وحدة هدفهما في نقطة الانطلاق ومساحة العمل، وهذا الامتزاج جعل من العسير الفصل بينهما في هذه المرحلة خاصة. فقد تداخلت المباحث البلاغية والنقدية تداخلاً يصعب معه وضع الفواصل والحدود بما يُميّز كلّ علم عن الآخر قبل مرحلة التقعيد، "ولعلَّ من أسباب ذلك أنَّ النقد لم يظهر عند ظهوره، علماً مستقلاً بنفسه، ولم تظهر البلاغة عند ظهورها علماً مستقلاً بنفسه، وربما لم يظهر غيرهما مستقلاً بنفسه أيضاً، وذلك يعود إلى طبيعة التأليف في العلوم في المرحلة الأولى، والتي تمَّ فيها تثبيت المعالم الأولية لكل علم"⁵.

وهذا ما يُقرّه كذلك أحمد مطلوب؛ فهو يرى أنَّ الباحث مهما صَنَّف النقد القديم في اتجاهات، يجد أنَّ النقد العربي كان

البلاغة "نظامٌ من القواعد، تقوم مهمته على التوجُّه في إنتاج النصِّ الأدبي، وهي نظامٌ يتحقَّق في النص، تؤثر على القارئ بإقناعه، أو تؤثر على المتلقّي في عملية الاتصال الأدبي"¹.

ولقد كان لعلم البلاغة فضلٌ كبير في بيان أساليب العرب، وتراكيب لغتهم، وما تمتاز به من قوَّة وجمال؛ في اللفظ والمعنى، والعاطفة والخيال؛ ممَّا أعان كثيراً على فهم تراثنا، وتقدير لغتنا، وبيان إعجاز كتابنا الكريم، بل إنَّ دراسة الإعجاز البياني وإدراكه كان الهدف الرئيس الذي من أجله وُضِع علم البلاغة.

نهاية القرن الرابع الهجري، وهو ما يعتبره الكثير من الدارسين العصر الذهبي للبلاغة، تميّزت كلمة البلاغة بمدلول ومفهوم اصطلاحي خاص بها، "فألَّف عبد القاهر الجرجاني كتابيه (أسرار البلاغة) و(دلائل الإعجاز)، وهو مُدرِك لهذا المدلول تمام الإدراك. ويقول المؤرِّخون للبلاغة إنَّ عبد القاهر هو الذي وضع الأسس الواضحة لهذا العلم، بتأليفه كتاب (أسرار البلاغة) في علم البيان، و(دلائل الإعجاز) في علم المعاني"².

وتبلورت ملامح البلاغة وتحدّدت معالمها بجمع شتاتها، وترتيبها، وتقعيدها وتبويبها، وتقسيمها إلى ثلاثة علوم هي: علم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع. وأهمُّ كتبها (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) لفخر الدين الرازي، و(مفتاح العلوم) للسكاكي، و(تلخيص المفتاح)، و(الإيضاح) للقرظيني، و(عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح) لهما الدين السبكي، وغيرها من شروح التلخيص الأخرى³.

ولما كانت منزلة الدرس البلاغي بهذه الأهمية والحيوية، فقد شغلت معطيات البلاغة العربية ممثلة بعلومها الثلاثة: (البيان، والمعاني، والبديع) مكانة متميزة من رقعة علوم اللغة العربية وثقافتها، حتى غدت ركناً مهماً من أركان النقد- قديماً وحديثاً- نظراً لمنجزاتها المتعلقة بخدمة المناهج النقدية المعاصرة في مقاربتها للنص الإبداعي الأدبي، وارتباطها بشكل مباشر وفاعل وحيوي بالدرس النقدي المعاصر، ولا سيما

حيث حاول الشارحون والمخلصون ضم بعض المصطلحات القريبة الشبه بحقل من هذه الحقول الثلاثة فتمحلوا في تسميتها مصطلحات بيانية أو بديعية أو خادمة لعلم المعاني. ولقد أبان كثير من الدارسين كبديوي طبانة عن خلط وقع في تصنيف هذه المصطلحات تبعا لتصنيف ثلاثية البلاغة (علم المعاني، علم البيان، علم البديع) سواء من حاول ذلك قبل السكاكي وهو ابن المعتز، أو من جاء بعد السكاكي. لعل ما تقدم يبرز اقتران كتب البلاغة بكتب النقد في هذا الباب، وعليه فمن أقدم ما وصل إلينا من كتب البلاغة والنقد:

- كتاب الصناعتين: لأبي هلال العسكري.
- كتاب مفتاح العلوم: للسكاكي.
- كتاب دلائل الإعجاز وكتاب أسرار البلاغة في علم البيان: لعبد القاهر الجرجاني.
- كتاب الإيضاح في علوم البلاغة: للخطيب القزويني.
- كتاب البديع: لابن المعتز.
- كتاب البيان والتبيين: للجاحظ.
- كتاب الحيوان: للجاحظ.
- كتاب الكامل في اللغة والأدب: للمبرّد.
- كتاب العقد الفريد: لابن عبد ربه.
- كتاب الأمالي: لأبي علي القالي.
- كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه: للقاضي عبد العزيز الجرجاني.
- كتاب الموازنة بين الطائيين: للأمدي.
- كتاب نقد الشعر: لقدامة بن جعفر.
- كتاب عيار الشعر: لابن طباطبا.
- كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: لابن رشيق.

- كتاب سر الفصاحة: لابن سنان الخفاجي.

هذا إجمالا، وبإيجاز ما كانت عليه علاقة النقد بالبلاغة في الأدب العربي عند المشاركة، أمّا إذا عرّجنا إلى النقد في المغرب العربي فإنّ الأمر لا يختلف عمّا رأيناه في المشرق، فمفهوم البلاغة و تقسيماتها، وألوان كلّ قسم منها ظلّت متداخلة ومضطربة نوعا ما عند المغاربة إلى فترة متأخرة. يقول محمد مفتاح في كتابه (التلقي والتأويل): " يرى متتبع البلاغة العربية

بلاغيا، ويُرجع ذلك إلى أسباب كثيرة، ثمّ يقول: "ومهما قيل فإنّ النقد العربي مرتبط بالبلاغة ارتباطا وثيقا لأنها أهم أركانها، ولأنّها أهم سمات اللغة العربية التي حفلت بكلّ فن بديع⁶.

كما نجد حسين الأسود يصف تلك العلاقة بين النقد والبلاغة وصفا بديعا؛ حيث يُشَبِّه تلك العرى الوثيقة بين النقد والبلاغة بالحبْل السُرِّي الذي يربط الجنين بأُمِّه، ويُمَدِّه بكلّ ما يحتاج إليه، فيقول: "والحديث عن الأصول التي تجمع البلاغة بالنقد القديم إنّما هو حديث عن الحبْل السُرِّي الدقيق الذي يصل البلاغة بالنقد. أمّا سبب وجود هذا الحبْل وعَلَّتْه فهو الطاقة الجمالية التي تُفرزها البلاغة العربية، ثمّ اعتماد أسباب هذه الطاقة في الأحكام النقدية، فالبلاغة عناصر جمالية، والنقد بوجهٍ عام أحكام تستند إلى هذه العناصر⁷.

فالبلاغة نبئت تمتدُّ جذوره من رحم النقد الأدبي، وعلاقتها به علاقة الجزء بالكلّ، والفرع بالأصل، فالنقد هو المنبع وهو الأساس الذي استقت منه وقامت عليه قواعد البلاغة، "وإذا كان هدف النقد البحث عن الجمال، ومحاولة إحصاء مظاهره، والإشادة به، وذكر القبح في معرض التنديد به والتحذير منه، فإنّ البلاغة هي ثمرة هذا البحث، ومجتمع مظاهر الجمال، صيغت في فصول وأصول وقواعد.

إن القدماء لم يميزوا بين النقد والبلاغة قبل عصر تقنية علوم البلاغة مع شراح القسم الثالث من كتاب مفتاح العلوم للسكاكي، فقد كانوا يعطفون في كل حديث عن العنصرين، بعضهما على البعض، وإذا كان هناك من تمييز قبل السكاكي ومعه، فهو تمييز لا يبغى الفصل، وإنما التكامل، ومعنى هذا أننا أمام نوعين من البلاغة وجدا في زمنين من تاريخ البلاغة:

النوع الأول تكاملي، وهو الذي تمت فيه دراسة البلاغة في حقلها الأدبي بدءا بالجاحظ إلى غاية السكاكي؛ وثانيا، البلاغة التعليمية وهي نشأت على يد شراح السكاكي، داخل ثلاثية علوم البلاغة (علم البيان، علم المعاني، علم البديع)

الفلاسفة وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته¹². ولهذا كله وغيره، وجدنا أغلب التيارات والمناهج النقدية الحديثة والمعاصرة¹³ تتجه إلى إمكانية إعادة قراءة البلاغة على ضوء المكتسبات المنهجية الجديدة. فكانت الدعوة إلى عودة البلاغة إلى الواجهة؛ فها هو ذا "رولان بارث" زعيم المجددين نفسه، يبحث للبلاغة القديمة عن (فستان) حديث، وعن شغل في شركات الإشهار (بلاغة الصورة)، لقد كتب سنة 1963 قائلاً: "ينبغي إعادة التفكير في البلاغة الكلاسيكية بمفاهيم بنويّة، وسيكون - حينئذٍ - من الممكن وضع بلاغة عامة، أو لسانية لدوائ التضمين، صالحة للصوت المنطوق، والصورة والإيماء"¹⁴، وهي عودة للبلاغة بصفتها "الإمبراطورية"، التي هيمنت على حقول المعرفة النقدية والأدبية.

وبالفعل استطاعت البلاغة القديمة أن تقدم أنموذجاً معيناً، كان معيناً للآراء والاقتراحات التي طرحت فيما بعد، وبخاصة من خلال النظريات الحديثة¹⁵. بل إن البلاغة القديمة "تضم الأفكار الجوهرية التي غيّبت الدراسات النصية بالتوسع فيها، ومن ثمّ توجد جوانب اتفاق عدّة بينها إلى حدّ يصعب معه إغفال الأثر، حتّى حين تكون درجة خفائه مرتفعة"¹⁶، ومن هنا فإن البلاغة العامة، الجامعة بين البلاغة القديمة والجديدة، تطرح نفسها كبديل في تحليل الخطاب، وفق المعطيات التي رسمها المنظرون القدماء والمحدثون، وأن في هذا الطرح نوعاً "من المثاقفة يقوم على الاستعانة بالثراث في فهم المسائل اللغوية الحديثة، خاصة تلك العلوم التي لها جذور تراثية؛ مثل: علم النص الذي قلنا: إن البلاغة تمثل السابق التاريخي له"¹⁷.

ولا عجب أنّه منذ النصف الثاني من القرن العشرين ظهرت في الغرب أصوات تنبّه إلى خطورة اختزال إمبراطورية البلاغة في المستوى الأسلوبي أو المحسّنات، ونجد "جيرار جنييت" "G. Genette" ألف مقالاً أسماه البلاغة المختزلة (La estreinte Rhétorique) حظي بمكانة خاصة في التنظير البلاغي الحديث، مُحاولاً فيه إبراز الانزياح الذي حدث في تاريخ

في المغرب أنّ التسمية بـ (علم البلاغة) لم تسد إلا في عصور متأخرة باعتبارها علماً شاملاً للعلوم الثلاثة: المعاني والبيان والبدیع⁸، ويستدل على ذلك بما ذكره ابن خلدون في مقدّمته؛ فقد استعمل مصطلح (البيان) ويقصد به (البلاغة)، وقد علّل ابن خلدون ذلك بقوله: "وأطلق على الأصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان، وهو اسم الصنف الثاني؛ لأنّ الأقدمين أوّل ما تكلموا فيه"⁹.

ويؤكد محمد مفتاح هذا الحكم بذكر مثالين: الأول يتعلّق بالسجلмасي صاحب كتاب (المتزع البديع في تجنيس أساليب البديع)، حيث يستعمل ثلاث تسميات، هي: (علم البيان) و(صناعة البلاغة) و(البديع)، إلّا أنه كثيراً ما يردّد (علم البيان) و(صناعة البلاغة). والثاني هو ابن البناء المراكشي العددي، صاحب كتاب (الروض المربع في صناعة البديع)، فيتحدّث عن (البلاغة) و(صناعة البديع) وعن (علم البيان)، ويرى أنّ العلم أشمل وأعمّ من الصناعة؛ لأنّ العلم يُميّز الكليات ويُميّز الجزئيات، وأمّا الصناعة فتعطي القوانين الكلية التي تنضبط بها الجزئيات، وعلى هذا يخلص إلى أنّ (علم البيان) أعمّ وأشمل من (صناعة البلاغة) و(صناعة البديع)¹⁰.

وما ذكره ابن خلدون وأكّده محمد مفتاح يُثبت أنّ هذا المصطلح (علم البلاغة) احتلّ شيئاً فشيئاً مكانة (علم البيان)، وفرض نفسه كما يقول محمد مفتاح: "بعد معي كُتب القزويني إلى المغرب"¹¹.

ومن خلال تتبعنا الدقيق لمسارات البحث البلاغي عند العرب، خلّصنا إلى أنّ الملاحظات الأسلوبية هي المصدر الأوّل للبلاغة العربية؛ حيث جمعت تحت اسم البديع ومحاسن الكلام (ابن المعتز)، وأنّ الطموح إلى صياغة نظرية عامة للفهم والإفهام، أو للبيان والتبيين (الجاحظ) هو المصدر الثاني الكبير للبلاغة العربية، ومن هنا فإنّ للبلاغة العربية مهدين كبيرين أنتجا مسارين كبيرين: مسار البديع يغذيه الشّعر، ومسار البيان يغذيه الخطابة، ونظراً إلى التداخل الكبير بين الشّعر والخطابة في الثراث العربي؛ فقد ظلّ المساران متداخلين ومُلتبسَيْن؛ رغم الجهود الكبيرة النيرة التي أسهم بها

في الملفوظ البلاغي بنية ودلالة ووظيفة وتواصلًا وتصنيفًا، وقد اتخذت هذه البلاغة الجديدة اتجاهات مختلفة ومتنوعة، منها بلاغة سيميائية تهتم بدراسة الآليات البلاغية في حقل السيميائيات، وبلاغة تداولية تسلط الضوء على الآليات البلاغية من حيث هي مظاهر تداولية، وبلاغة أسلوبية تبحث في جماليات الأسلوب...

كل هذا يعطي تصورا واضحا عن إمكانية الانتفاع من كشوفات الدرس النقدي الحديث ومقارباته في تحليل النصوص وبيان معطياتها الوظيفية والفكرية والجمالية، في قراءة الدرس البلاغي بمشارعه ومنجزاته.

بين البلاغة والأسلوبية:

لقد دعا باحثون سابقون في مقولاتهم إلى (تجديد البلاغة العربية) قصد إحياء قواعدها، وربطها بما استحدثت من بحوث في شتى المناهج النقدية المعاصرة، ولا سيما المنهج الأسلوبي، "أمثال الشيخ أمين الخولي، وأحمد الشايب، وأحمد الزيات، ومصطفى صادق الرافعي"، وكانت مُحاولاتهم الأولى بداية الربط الحقيقي بين الدرس البلاغي القديم، والدرس الأسلوبي الحديث²⁰.

يُعدُّ مفهوم الأسلوبية - كما هو معروف - وليد القرن العشرين، وقد التصق بالدراسات اللغوية، وهو بذلك قد انتقل عن مفهوم "الأسلوب" السابق في النشأة منذ قرون، والذي كان لصيقًا بالدراسات البلاغية، ومن الممكن القول إنَّ الأسلوب مهادًا طبيعيًّا للأسلوبية.

والأسلوبية منهج نقدي غايته مقارنة النصوص في سياقها اللغوي المتمثل في النص، ومدى تأثيره في القراء، فيجعل من الأسلوب مادة لدراسته، حينها نجد أنَّ هذا الأخير يكون حقلًا خصبًا تجد فيه الأسلوبية ضالتها درسًا وتطبيقًا، ومن هنا؛ فإنَّ الجانب اللغوي هو مجال الباحث الأسلوبي؛ لأنَّ الأسلوبية تُعَوِّد بالضرورة - حسب طبيعتها - إلى "خواص النَّسيج اللغوي، وتنبثق منه؛ وعليه فإنَّ البحث عن بعض هذه الخواص ينبغي أن يتركز في الوحدات المكونة للنص، وكيفية بروزها وعلائقها"²¹، أمَّا فيما يتصل "بالأثر الجمالي، أو تحليل عمل الشاعر، أو الروائي، أو المسرحي وجدانيًا، وجماليًا

البلاغة عندما تمَّ النظر إليها من خلال جزء من أجزائها هو الأسلوب"¹⁸، كما دعا "بيرلمان" Ch. Perelman إلى ضرورة العودة إلى المعنى الشَّامل للبلاغة، والذي يضمُّ أبعادًا حجاجية جدلية، وفلسفية منطقية؛ وذلك في محاولة منه "لإحياء البلاغة الميتة التي فقدت على مدى قرون أجزاء هامة من إمبراطوريَّتها الواسعة"¹⁹.

ثنائية النقد والبلاغة في النقد العربي الحديث والمعاصر:

وعندما تنتقل إلى التَّنظير العربيِّ البلاغي الحديث، نجد الدِّراسات التي اهتمَّت بتدقيق المصطلح البلاغي، بل إنَّ إلقاء نظرة على المقررات الجامعية والمدرسية تُثبِت مدى الاهتمام بالمراث البلاغي من خلال علوم تتخذ مسَمَّياتٍ متعدِّدة؛ فهي سيميولوجيا، وأسلوبية، ولسانيات، وهي مُنطق وجدل... وكان محمد العمري من أوائل مَنْ نبَّه إلى خطأ المفهوم الشائع للبلاغة في السَّاحة الأدبية والتعليمية العربية، وهو خطأ ناجم عن اعتماد شروح التلخيص التي انصبَّت على عمل السَّكَّاكي "مفتاح العلوم"

إنَّ هذه المجهودات المبذولة اليوم في التنظير البلاغي العربي يمكن أن تفتح بابًا جديدًا لإعادة قراءة البلاغة العربية القديمة، والكشف عن مكُوناتها الحجاجية والإقناعية والتداولية، خاصة إذا نظرنا إلى الفكر العربي في شموليَّته؛ حيث يمكن أن نجد تقاطعاتٍ عديدة بين الدرس البلاغي وبين علومٍ أخرى؛ كالنحو، وعلم الكلام، والتفسير، والمنطق.

مع منتصف القرن العشرين تطوَّرت البلاغة وانتقلت من طابعها التعليلي إلى طابعها العلمي والوصفي، خاصة بعد ما استفاد الدرس البلاغي من معطيات جديدة أفرزتها المناهج النقدية الحديثة التي جاءت عقب الثورة اللسانية التي أحدثها فرديناند دي سوسير، حيث استثمر أصحاب البلاغة الجديدة زخما من المفاهيم والإجراءات المستقاة من مجالات متعدِّدة منها: تحليل الخطاب، الأسلوبية، السيميائية، التداولية، نظرية القراءة، التفكيكية، لسانيات النص... ممَّا جعل هذه البلاغة الجديدة لا تقتصر على دراسة الصُّور في الخطابات الأدبية، بل تعدَّت ذلك إلى الاهتمام بالصُّور في سائر الخطابات وأصبح الحديث عن بلاغة علمية ووصفية تبحث

سامعيه، وذلك ما دعا إليه علماء البلاغة في مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

بعد توضيح نقاط التقارب بين البلاغة و الأسلوبية نوضح نقاط الاختلاف بينهما، ومنها:

- أن وجود المتلقى هام جداً في الأسلوبية ، لأنه هو الذي يبعث الحياة للنص، ويحدد مدى دقته ومعاييرته الفكرية في الرسالة المراد تبليغها، بعكس البلاغة التي تعتبر المتلقى جزءاً محدوداً في الدراسة البلاغية، وذلك لتعدد المقامات فهو ركن واحد من أركان العملية الإبداعية، لكن على الرغم من ذلك هناك ضرورة لوجوده.

ففي الأسلوبية ينظر إلى النص على أنه كل متكامل بدلالاته ومدلولاته بعكس البلاغة التي فصلت بين الشكل والمضمون في العمل الأدبي حيث إن الألفاظ أو الشكل هي صورة العمل الأدبي والمضمون أي المعنى هو مفهومه المراد منه²⁴.

- البلاغة تضع معاييرها ثم تطلب من الكاتب أن يلتزم بهذه المعايير، فوجودها سابق لوجود النص، بعكس الأسلوبية التي تتناول النص بعد إنتاجه فتحلله وتبرز ما بداخله من جماليات، فالبلاغة تحكم بمقتضى أنماط مسبقة وقواعد جاهزة، بينما الأسلوبية تلتزم بتشخيص الظاهرة الإبداعية الأدبية ووصفها وتفسيرها.

- البلاغة علم معياري يهدف إلى تعليم مادته، موضوعها البيان، وهي تتميز بالأحكام التقييمية، أما الأسلوبية فتتفنى عن نفسها المعيارية وإرسال الأحكام التقييمية، وهي لا تسعى إلى غاية تعليمية.

- تهدف البلاغة إلى خلق الإبداع بوصاهاها التقييمية، بينما تسعى الأسلوبية إلى تعميم الظواهر بعد أن تقرر وجودها.

- اعتمدت البلاغة فصل (الشكل/التشكيل) عن (المضمون/الرؤيا)، فيما ترفض الأسلوبية مبدأ الفصل بين الدال والمدلول.

- تنظر البلاغة إلى الصورة نظرة منطقية، أما الأسلوبية فتتعامل مع الصورة من منظور جمالي وظيفي.

وبناء على ما سبق يمكن القول: إن العلاقة بين البلاغة والأسلوبية علاقة تزامنية، فالأسلوبية هي التطور والوريث الشرعي للبلاغة القديمة، والربط بين الدرس البلاغي القديم والدرس الأسلوبي الحديث يؤكد صلاحية البلاغة القديمة لأداء مهمة نقدية لا تقل أهمية عن الدراسة الأسلوبية، ولكن

وموقفياً أو سواه؛ فكل ذلك يكون مهمّة الناقد الأدبي بعد ذلك²².

وللبلاغة العربية مكانة من النقد والدراسات الأسلوبية المعاصرة، وهناك علاقة تفاعلية بين البلاغة العربية والنقد الأسلوبي على وجه الخصوص؛ فقد وجد الناقد العربي المعاصر، الذي يتخذ المنهج الأسلوبي مساراً نقدياً يتوسل به إلى النص، في التراث البلاغي العربي ميداناً خصباً للاستفادة من آلياته وأدواته في مقارنة النصوص وتذوقها، رجاء كشف جمالياته اللغوية وخصائصه الأسلوبية وعناصره البلاغية.

لم يعد الناقد الأسلوبي العربي المعاصر- فيما يفترض على الأقل- ذلك القارئ السلبي الذي يركن للاستسلام للأنموذج النقدي الأسلوبي الغربي جاهزاً، بل أصبح قارئاً من نوع متميز، يتفاعل مع الأنا والآخر، ويستفيد من التراث النقدي والبلاغي العربي القديم ، ويفتح على الأنموذج النقدي الغربي المعاصر، بلا إفراط ولا تفريط؛ ثم إن الكثير من المناهج النقدية العربية المعاصرة، ولا سيما النسقية منها، قد اهتمت بالبلاغة العربية، لتكون عوناً لها على فهم النص المعاصر وتذوقه وتأويله.

فهدف قراءة النص ليس معرفة المعنى أو المضمون على نحو مباشر، وإنما فحص النص من خلال طريقته في استخدام اللغة وتشكيلها، وتوظيف صوره ورموزه ورصد أبعادها الأسلوبية والجمالية، وكيفية استقصائه لإمكانات اللغة والتشكيل.

نقاط التشابه/الاختلاف بين البلاغة والأسلوبية:

إن أهم نقاط الالتقاء بين البلاغة والأسلوبية هي النص الأدبي، فكلاهما يهتم بتحليل النص الأدبي واستجلاء جمالياته حتى إنه يمكن القول إن الأسلوبية هي الوريث الشرعي للبلاغة، ويبرز " فيرو fero " هذا الازدواج مطابقا بين مجال العمل الأسلوبي ومحتوى التفكير البلاغي القديم، ووصل إلى أن موضوع كليهما "فن الكتابة وفن التركيب، فن الكلام وفن الأدب"²³.

وتلتقى البلاغة والأسلوبية من ناحية المفهوم ، حيث إن مفهوم الأسلوب يعنى مناسبة كلام المخاطب لأقدار

يتفاعل مع الأنا والآخر، ويستفيد من التراث النقدي والبلاغي العربي القديم، ويتفتح على الأنموذج النقدي الغربي المعاصر، بلا إفراط ولا تفريط؛ ثم إن الكثير من المناهج النقدية العربية المعاصرة، ولا سيما النسقية منها، قد اهتمت بالبلاغة العربية، لتكون عوناً لها على فهم النص المعاصر وتذوقه وتأويله.

- لا بد من إعادة الشرعيّة للدرس البلاغي؛ انطلاقاً من المفهوم النسقي لها، والذي يسعى إلى جعل البلاغة علماً أعلى، يشمل التّخييل والحجاج، ويستوعب المفهومين معاً.

- إن أهم نقاط الالتقاء بين البلاغة والأسلوبية هي النص الأدبي، فكلاهما يهتم بتحليل النص الأدبي واستجلاء جمالياته ويمكن القول إن العلاقة بين البلاغة والأسلوبية علاقة تزامنية، فالأسلوبية هي التطور والورث الشرعي للبلاغة القديمة، والربط بين الدرس البلاغي القديم والدرس الأسلوبي الحديث يؤكد صلاحية البلاغة القديمة لأداء مهمة نقدية لا تقل أهمية عن الدراسة.

قائمة المراجع:

- 1 - الأسود حسين: أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، مج 81، 2007.
- 2 - بدوي طبانة، قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، ط 3 المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، مصر، 1969م.
- 3 - حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: الحبيب بن خوجة، بيروت، لبنان، 1981.
- 4 - حامد أبو حامد، "الخطاب والقارئ"، ط 2، مركز الحضارة العربية، القاهرة 2002.
- 5 - رجاء عيد، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، ط 1، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1993.
- 6 - سعيد حسن بحيرى، "علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات".
- 7 - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ط 1، عالم المعرفة، القاهرة، مصر، 1992.
- 8 - صلاح فضل، شفرات النص: دراسة سيميولوجية في شعرية القصد والقصيد، ط 1، دار الآداب، 1999.
- 9 - الكواز محمد، البلاغة والنقد (المصطلح والنشأة والتجديد)، ط 1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2006.

ذلك يكون مع إجراء بعض التعديلات التي تعطي لأدوات البلاغة قدرة تحليلية بوسعها التعامل مع السطوح والأعماق²⁵ وصفوة القول في العلاقة بين البلاغة والأسلوب هي أنه مع دخول البلاغة عصر العلم، وجب لها أن تعتمد على ركانزه، وعدم مخالفته، وبالتالي التخلي عن الطابع المعياري، لتتجه إلى وصف لغة الأدب وأشكالها، وبذلك تصبح الدراسة الأسلوبية هي المقدمة الضرورية للبحث البلاغي الحديث المعتمد دائماً على نتائج علمية منظمة، ومقولات أكثر كلية وشمولية²⁶.

الخاتمة:

- لا بد من الحفاظ على هوية المنجز البلاغي العربي، إلى جانب الانتفاع من المنجز الوافد في إطار تقييم الدرس البلاغي، وإعادة قراءة المنجز البلاغي في إطار من التجاذب والتلاقح مع تطور النقد ومناهجه لا سيما الدراسات الأسلوبية، وضرورة البحث عن التوجهات النسقية في مسار التفكير العلمي في الميدان البلاغي.

- هناك إمكانية للانتفاع من كشوفات الدرس النقدي الحديث والمعاصر ومقارباته في تحليل النصوص وبيان معطياتها الوظيفية والفكرية والجمالية في قراءة الدرس البلاغي بمشاريعه ومنجزاته.

- استثمار أصحاب البلاغة الجديدة زخماً من المفاهيم والإجراءات المستقاة من مجالات متعدّدة منها: تحليل الخطاب، الأسلوبية، السيميائية، التداولية، نظرية القراءة، التفكيكية، لسانيات النص،... مما جعل هذه البلاغة الجديدة لا تقتصر على دراسة الصّور في الخطابات الأدبية، بل تعدّت ذلك إلى الاهتمام بالصّور في سائر الخطابات، وأصبح الحديث عن بلاغة علمية ووصفية تبحث في المفوظ البلاغي بنية ودلالة ووظيفة وتواصل وتصنيفاً، وقد اتخذت هذه البلاغة الجديدة اتجاهات مختلفة ومتنوعة، منها بلاغة أسلوبية، وبلاغة سيميائية، وبلاغة تداولية...

- لم يعد الناقد الأسلوبي العربي المعاصر - فيما يفترض على الأقل - ذلك القارئ السلبي الذي يركن للاستسلام للأنموذج النقدي الأسلوبي الغربي جاهزاً، بل أصبح قارئاً من نوع متميز،

- 10 - محمد العمري، "البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول"، ط 1، دار إفريقيا الشرق، 2005م.
- 11 - محمد عبد المطلب، هكذا تكلم النص، دط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دت.
- 12 - محمد عبد المطلب، "البلاغة العربية قراءة أخرى"، ط 1، الشركة العالمية للنشر، / 1997م.
- 13 - محمد مفتاح: التلقي والتأويل مقارنة نسقية، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994م.
- 14 - مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، دط، مكة للطباعة، القاهرة، مصر، 1998.
- 15 - مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، دط، مكة للطباعة، القاهرة، مصر، 1998م.
- 16 - مطلوب أحمد: النقد البلاغي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 38، ج (2 و3)، 1987م.
- 17 - مفتاح محمد: التلقي والتأويل مقارنة نسقية، ط 1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1994م.
- 18 - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، 2002.
- 19 - L'empire Rhétorique. Ch. Perelman. Librairie Philosophique. 1977.
- 20 - Rhétorique restreinte. G. Genette. Figure 3. Edition du seuil. Paris 1972.
- . الهوامش:
- 1 حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: الحبيب بن خوجة، بيروت، لبنان، 1981، ص 88.
- 2 مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة، مصر، دط، 1998، ص 185/186.
- 3 بدوي طبانة: قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، المطبعة الفنية الحديثة، القاهرة، مصر، ط 3، 1969م، ص 18، 19.
- 4 مصطفى عبد الرحمن إبراهيم: في النقد الأدبي القديم عند العرب، مكة للطباعة، القاهرة، مصر، دط، 1998م، ص 185.
- 5 الكوازي محمد، البلاغة والنقد (المصطلح والنشأة والتجديد)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 2006، ص 200.
- 6 مطلوب أحمد: النقد البلاغي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مج 38، ج (2 و3)، 1987م، ص 200، 201.
- 7 الأسود حسين: أصول العلاقة بين البلاغة والنقد القديم، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، مج 81، 2007، ص 115.
- 8 محمد مفتاح: التلقي والتأويل مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1994م، ص 13.
- 9 ابن خلدون: المققدمة، ص 571.
- 10 مفتاح محمد: التلقي والتأويل مقارنة نسقية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1994م، ص 14.
- 11 ابن خلدون: المققدمة، ص 572.
- 12 محمد العمري، "البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول"، دار إفريقيا الشرق ط 1، 2005م، ص 28 - 29.
- 13 يُنظر: محمد العمري، البلاغة العربية الأصول والامتدادات، ط 1، 1998.
- 14 رولان بارت، "بلاغة الصورة"، نقله الشراوي في "البلاغة القديمة"، ص 5.
- 15 سعيد حسن بحيري، "علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات"، ص 143.
- 16 سعيد حسن بحيري، "علم لغة النص، المفاهيم والاتجاهات"، ص 143، 144.
- 17 حامد أبو حامد، "الخطاب والقارئ"، مركز الحضارة العربية، ط 2، القاهرة 2002، ص 149.
- 18 Rhétorique restreinte. G. Genette. Figure 3. Edition du seuil. Paris 1972. P 21 - 40.
- 19 L'empire Rhétorique. Ch. Perelman. Librairie Philosophique. 1977. P 13.
- 20 محمد عبد المطلب، "البلاغة العربية قراءة أخرى"، الشركة العالمية للنشر، ط 1 / 1997م، ص 6.
- 21 صلاح فضل، شفرات النص: دراسة سيميولوجية في شعرية القصيدة والقصيد، دار الآداب، ط 1، 1999، ص 80.
- 22 رجاء عيد، البحث الأسلوبي معاصرة وتراث، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 1، 1993، ص 33.
- 23 منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، 2002، ص 73.
- 24 المرجع نفسه، ص 74.
- 25 محمد عبد المطلب، هكذا تكلم النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، دت، ص 7.
- 26 صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، القاهرة، مصر، ط 1، 1992، ص 111/112.

